

الظواهر التحويلية في تفسير الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) دراسة نحوية دلالية الدكتور محمد نجم الدين إنجه الجباري

ملخص البحث

يتضمن هذا البحث الظواهر التحويلية في تفسير الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، دراسة نحوية دلالية ، وتحدثنا عن المنهج التحويلي التوليدي بشكل موجز ، ثم درسنا فيه الأمثلة التي تتضمن التحويل بالتقديم والتأخير والحذف والذكر ؛ لأن لهذه الظواهر أغراضاً ودلالات في العناصر التركيبية في كل سياق. إذ حاولنا في هذه الدراسة رصد هذه الظواهر عند القدماء من العرب والمسلمين من جهة ، والزمخشري من جهة أخرى وبشكل خاص وكيفية تناولها في سياقات مختلفة بحسب المقامات والمواقف الخارجية للوقوف على التغيرات الطارئة على المستوى السطحي الخارجي والدلالي العميق بمقتضى قوانين تحويلية .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خاتم النبيين والمرسلين ،
وآله الطاهرين ، وصحبه المنجبين ، وبعد :
فإن القرآن الكريم جامع للعلوم العربية والإسلامية ، فهو الكتاب الذي لا تنقضي
عجائبه .

إذا أطال العلماء والباحثون - النظر في جوانبه المضيئة ، يتأملون معانيه ،
ويتذوقون أساليبه ، وما تشتمل عليه آياته من عجب النظم والتراكيب ، والمعاني

والدلالات .

ويُعدُّ المنهجُ التَّحويليُّ التَّوليديُّ واحدًا من المناهج اللُّغوية الحديثة ولهُ أثرٌ مهمٌّ وبارزٌ في الدِّراسات اللُّغوية والنَّحوية والدَّلالية والبلاغية لمعرفة تحليل البنية العميقة والتراكيب وتفسيرها .

وبعدَ اِطِّلاعِي على هذا الموضوع ، وَجَدْتُ أَنَّهُ يُمكنُ الخُروجُ منه بدراسةٍ نحويةٍ ودلاليةٍ ، وفي إطارِ ما ذُكِرَ اخترنا موضوعَ : (الظواهر التَّحويلية في تفسير الكشَّافِ للزَّمخشرِيِّ (ت ٥٣٨ هـ) ، دراسة نحوية دلالية) ؛ ليكونَ عنواننا لهذا البَحْثِ ، وقد أردنا لِعَمَلِنَا أن يَنشَطَ في الدَّائِرَةِ القُرْآنيةِ نَرُصدُ فيه الآياتِ التي تَتَضَمَّنُ التَّحوِيلَ بالتَّقديمِ والتَّأخيرِ والحذفِ والذِّكْرِ للكشفِ عن أسرارِ العبارةِ القُرْآنيةِ ، وبيانِ مقاصدها الإبداعية في الآياتِ التي مَثَلَتِ الظَّاهرةَ اللُّغوية التي أشرنا إليها .

أمَّا خُطَّةُ البَحْثِ فقد اقتضتْ أن تكونَ في تَمهيدٍ ومَبْحَثينِ وخاتمةٍ تَشتمِلُ على أهمِّ النَّتائِجِ التي توَصَّلنا إليها ، مع قائمةٍ بأهمِّ المصادرِ والمَراجِعِ .

ورأينا أن يكونَ التَّمهيدُ بعنوانَ : (المنهج التَّحويليُّ التَّوليديُّ وجومسكي) ، عَرَضنا فيه دراسة موجزة لهذا المنهج ومُؤسسه (جومسكي) ، مع الإشارةِ إلى تناولِ سبقِ القدماءِ مِنَ النُّحويينَ والبلاغيينَ وغيرهما لهذا المنهج .

وقد دَرَسنا في المَبْحَثِ الأوَّلِ الآياتِ القُرْآنيةِ التي تَتَضَمَّنُ التَّحوِيلَ بالتَّقديمِ والتَّأخيرِ .

ورصدنا في المبحث الثاني الآيات القرآنية التي تتضمّن التحويل بالحذف والذكر. وختمتُ البحثُ بخاتمةٍ أوجزتُ فيها أهمّ النتائج التي توصلتُ إليها هذه الدراسة .

وفي الختام نقولُ : إنَّ عمَلنا هذا ليس إلاَّ جهداً متواضعاً بذلناه في خدمة القرآن الكريم ، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

التمهيد

المنهج التحويلي التوليدي وجومسكي :

أنشأ النظرية التحويلية التوليدية العالم اللغوي الأمريكي جومسكي ، الذي يُعدُّ من العلماء اللغويين المشهورين في العالم، وهذه النظرية بدأت بكتاب صغير أصدره جومسكي في عام ١٩٥٧ بعنوان (البنى التركيبية أو البنى النحوية) ، ومنذُ صدور هذا الكتاب توالى الكُتُب والمؤلفات والتحليلات التي أسهمت في تطوير النظرية التحويلية حتى أصبحت هذه النظرية من أكثر النظريات اللغوية أهميةً وشهرةً في العالم، وقد شهدت هذه النظرية منذُ صدور الكتاب السابق كثيراً من التعديلات، من علماء مُختلفين أشهرهم العالم الأمريكي الياباني الأصل (سوزو موكونو) ، كما شهدت تعديلات من جومسكي نفسه ، فقد أصدر كتاباً آخر سنة ١٩٦٥ بعنوان: (وجوه من نظرية النحو (Aspects of the theory of Syntax).

أعاد فيه صياغة النظرية النحوية ، على نحوٍ تقنيٍّ حديث ، وُصِفَ بأنه دقيقٌ

ومتكاملاً ، ووضع فيه أصول نظرية شاملة متكاملة لدراسة النظام اللغوي ، ووصفه وفهمه في مستوياته المختلفة معاً^(١).

والصورة المثلى لكل لغة من اللغات أن تتفق بناها الداخلية مع بناها الخارجية، ولكن مثل هذه الحالة لا تكاد توجد في جميع اللغات ، ففي اللغة العربية مثلاً نرى أن بعض المعاني متطابقة أو متفقة في بنيتها الخارجية مع اختلاف بناها الداخلية ، ومن أمثلة ذلك : (١- أفضل ثوب الحرير . ٢- أفضل كتاب الضيف . ٣- أفضل نوم الليل .) . ففي الأمثلة السابقة نلاحظ أنها مشتركة في بنياتها النحوية الخارجية من حيث كونها تتألف جميعاً من (فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ بهٍ ومضافٍ إليه في كلٍ منها ، ففي المثال الأول نجد المراد منه هو الثوب الذي من حرير ، والمراد من الثاني هو الكتاب الذي للضيف ، والمراد من الثالث هو النوم الذي في الليل ، أي أن الإضافة في المثال الأول على معنى (من) وفي الثاني على معنى (اللام) وفي الثالث على معنى (في) على الرغم من أن البنية الخارجية لهذه الأمثلة لا تنص على هذا الاختلاف^(٢).

فلو رجعنا قليلاً إلى الإرث اللغوي القديم لوجدنا كثيراً من النحاة والبلاغيين تناولوا هذا الموضوع كسيبويه (ت ١٨٠هـ) والجرجاني (ت ٤٧١هـ)، وغيرهما من النحويين ، ولعل الجرجاني (ت ٤٧١هـ) قد تعمق كثيراً في هذا المجال في كتابه (دلائل الإعجاز) وتناول الظواهر التحويلية بصورة متأنية كالقديم والتأخير والزيادة

والحذف... إلخ، وإلى جانب هذا فإن لهذا الكتاب مكانته الخاصة لمن يعرف معنى البلاغة وسر تسمية هذا الفن بالمعاني⁽³⁾.

فهذه الظواهر تناوله اللغوي الأمريكي المعروف بـ (نعوم جومسكي) المولود في أمريكا ١٩١٨ ، مما يعرف بـ (المنهج التحويلي) الذي يدعو إلى تغيير اتجاه علم اللغة من المنهج الوصفي إلى المنهج التحويلي والذي رأى هذا اللغوي أن المنهج الوصفي يقصر اهتمامه على السطح اللغوي⁽⁴⁾.

واللغة كما يراها جومسكي هي أهم الجوانب الحيوية في نشاط الإنسان ولهذا ليس من المعقول أن تتحول من شيء مهم إلى مجرد تراكيب شكلية ، ومعنى ذلك أن جومسكي كان يقيم نظريته على أساس عقلي ، ويحاول أن يحلل ظواهر اللغة تحليلاً عقلياً يناسب أهميتها⁽⁵⁾.

وعلى هذا الأساس قسم جومسكي الكلام الإنساني على قسمين :

- ١- ما ينطق به الإنسان وقد سماه (البنية السطحية للكلام) .
- ٢- هو ما يحدث في أعماق الإنسان ساعة التكلم فيدفعه إلى تفصيل هذه الصيغة أو ذلك التراكيب وسماه (البنية العميقة للكلام) . ومن هنا نستنتج أن اللغة التي نطق بها فعلاً إنما تكون تحتها عمليات عقلية عميقة ، ودراسة (بنية السطح) تقدم التفسير الصوتي للغة ، أما دراسة (بنية العمق) فتقدم التفسير الدلالي لها⁽⁶⁾ .

فَعِلْمُ اللُّغَةِ التَّوَلِيدِي مُرْتَبَطٌ بِتَوَلِيدِ العَدَدِ اللانِهائِي مِنَ الجُمَلِ التي تَرِدُ فِي لُغَةٍ ما .
أما عِلْمُ اللُّغَةِ التَّحْوِيلِي فهو ذلِكَ العِلْمُ الذي يَهْتَمُّ بِدراسةِ العِلاقاتِ التي تَقُومُ بَينَ
عِناصِرِ الجُمَلِ مِنْ تَرْتِيبِ وَحَذْفِ وإِضاْفَةٍ وإِسْتِبدالِ وتَقُومُ هَذِهِ الفِكرَةُ عَلى أَنَّ أَيَّ لُغَةٍ
مِنَ اللُّغَاتِ تَحْوِي عِدداً مَحْدوداً مِنْ دَوَالِ النَسَبِ وَالوَحِداَتِ الصَّوْتِيَّةِ إِلا أَنَّ الجُمَلِ
عَدَدُها غَيرِ مُتناهٍ (7).

ولقد جَهَدَ النُّحاةُ المُعاصِرُونَ ، وَهُمُ يُحاوِلُونَ رَسَمَ صِورةِ جَامِعَةٍ مانِعَةٍ لِمَبادئِ
المدرسةِ التَّحْوِيلِيَّةِ وَأُسِّسها ؛ لِإِبرازِ المُنطَلقاتِ التَّأسِيسِيَّةِ التي قامَتِ عَليها هَذِهِ
المدرسة ، فَيَقَرِّرُ عبدُ السَّلامِ المَسَدِّي أَنَّ هَذِهِ المُنطَلقاتِ تَتَمَثَّلُ فِي " أَنَّ غايَةَ
اللِسانِي أَنَّ يُحَلِّلَ المُحَرِّكاتِ التي بِفَضْلِها يَتَوَصَّلُ الإِنسانُ إِلى اسْتِخدامِ الرُّموزِ
اللِغويَّةِ سِواءً أَكانتْ تِلْكَ المُحَرِّكاتِ نِفسانِيَّةً أَمْ ذِهْنِيَّةً ذاتِيَّةً " (8).

المبحثُ الأولُ : التَّحْوِيلُ بِالتَّقديمِ وَالتَّأخِيرِ :

نَقْضُ بِالتَّقديمِ وَالتَّأخِيرِ - هُنا - ما يَتَعَلَّقُ بِالجانبِ الإِسنادِي وَليسَ تَقْدِيمُ لَفْظٍ عَلى
أخر ، وَتُعَدُّ هَذِهِ المُسأَلَةُ مِنَ المُسائِلِ التي تَتَعَلَّقُ بِالجانبِ الأُسْلوبي لِلتَّراكيبِ النَحويَّةِ ، وَقَدْ
وَرَدتْ لِدالِلاتِ مُتنوعَةٍ عِندَهُم ، كالعِنايةِ وَالإِهْتِمامِ وَالتَّنْبِيهِ وَالتَّوكِيدِ (9) .

وقَدْ ذَكَرَ سِيبَوِيه في كِتابِهِ أَنَّ سَببَ التَّقديمِ وَالتَّأخِيرِ هُوَ العِنايةِ وَالإِهْتِمامِ ، فيقولُ
: " كَأَنَّهُمُ إِمَّا يَقدِمُونَ الذي بَبيانِهِ أَهمُّ لِهِمُ وَهُمُ بَبيانِهِ أَعنى ، وَإِنْ كانا جَمِيعاً يَهِمانَهُمُ وَيَعنِيانَهُمُ "

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ سيبويه - وإن تكلم في النحو - فقد نبه في كلامه " على مقاصد العرب ، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها ، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، ونحو ذلك ، بل هو يبين في كل باب ما يليق به ، حتى أنه احتوى على علم المعاني والبيان ، ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني " (١١). وكذلك تحدَّث عنه أبو عبَّدة (ت ٢١٠هـ) (١٢) ، والأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ) (١٣) ، والمُبرِّد (ت ٢٨٥هـ) (١٤) ، والزَّجَّاج (ت ٣١١هـ) (١٥) .

وقد اختلفت المسألة عند عبد القاهر الجرجاني عما أشاروا إليه وتحدثوا عنه ، إذ ذكر دلالات أخرى للتقديم والتأخير في منظور جمالي وفني (١٦) ، فيقول : " هذا بابٌ كثيرُ الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية . . . " (١٧) ، ومن خلال التَّطبيق سنجدُ آثارَ فكر عبد القاهر الجرجاني واضحة على الرَّمخسريِّ .

ومن الأغراض التي ذكرها الرَّمخسريُّ للتقديم والتأخير: الدلالة على الاختصاص ، ومنها إفادة معنى التأكيد والتشديد ، وتعظيم الأمر واستكباره ، والتوبيخ ، وتصوير الحال ، والعناية والاهتمام (١٨) .

أولاً : تقديم المفعول بهِ على الفعلِ وتأخيره :

من دواعي هذا التَّحويل إذا أرادَ المُتكلِّمُ أن يُجريَ تَغْييراً في المعنى عليه أن يُجريَ تَغْييراً في المبنى ، ومن أغراض التقديم والتأخير التي ذكرناها الدلالة على الاختصاص ، ومن ذلك تقديم المفعول بهِ في قوله - تعالى - : ﴿ يَاكَ نَبُّهُ وَيَاكَ نَسَمِعُ ﴾ (١٩) ، إذ ذكرَ الرَّمخسريُّ أن تقديمه لإفادة اختصاص الله - سبحانه وتعالى - بالعبادة وطلب الاستعانة ، والمعنى : نخصك

بالعبادة ونخصك بطلب المعونة (٢٠) . ولهذا يُلاحَظُ أَنَّ الجُمْلَةَ المُضارِعِيَّةَ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) هي جُمْلَةٌ مُحَوَّلَةٌ بِنَيْتِهَا العَمِيقَةُ (نَعْبُدُكَ) لِإِفَادَةِ الإِخْتِصَاصِ والقَصْرِ .

" وأساس ذلك أَنَّ الجُمْلَةَ الفَعْلِيَّةَ التي يَكُونُ المَفْعُولُ بِهَ فِيهَا ضَمِيرًا مُتَّصِلًا ، حينَ يُرَادُ أَنْ يَقْصَرَ الحَدِيثَ عَلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ هَذَا الضَّمِيرَ يَتَحَوَّلُ إِلَى ضَمِيرٍ مُنْفَصِلٍ فِي مَحَلِّ مُقَدِّمٍ عَلَى عَامِلِهِ . فالإِخْتِصَاصُ كَانَ بِسَبَبِ تَقْدِيمِ الضَّمِيرِ المُؤَدِّي وَظِيفَةِ المَفْعُولِ بِهَ . وقد يَكُونُ التَّحْوِيلُ بِالتَّقْدِيمِ لِإِحْدَاثِ النِّعْمِ الذي لَهُ دَرَجَةٌ كَبِيرَةٌ وَتَأثيرٌ عَجِيبٌ عَلَى السَّمَاعِ " (٢١).

وَمِنْ أَمْثَلِهِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢٢) ، فقد ذَكَرَ أَنَّ تَقَدَّمَ مَفْعُولِ الفِعْلِ (يُنْفِقُونَ) ؛ لِأَنَّهُ الأَهَمُّ فِي الكَلَامِ ، فَيَقُولُ : "وقَدَّمَ مَفْعُولِ الفِعْلِ دَلَالَةً عَلَى كَوْنِهِ أَهَمًّا ، كَأَنَّهُ قَالَ : وَيُخْصُونَ بَعْضَ المَالِ الحَلَالِ بِالتَّصَدُّقِ بِهِ " (٢٣) . وَيُلاحَظُ أَنَّ التَّقْدِيمَ وَالتَّأخِيرَ هُنَا لِلعِنَايَةِ وَالأَهْتِمَامِ ، وَهُوَ الأَمْرُ الذي أَشَارَ إِلَيْهِ اللُّغَوِيُّونَ القُدَمَاءُ كَثِيرًا ، وَهُوَ مِنْ أَكْثَرِ الأَغْرَاضِ وَرودًا .

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (٢٤) ، فقد ذَكَرَ الرَّمْخَسَرِيُّ أَنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ التَّقْدِيمِ هُوَ العِنَايَةُ وَالأَهْتِمَامُ ، فَيَقُولُ : " فَإِنَّ قُلْتَ : قَوْلُهُ : (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) مَسْبَبٌ عَنِ خَوْفِ الغَضَبِ عَلَيْهَا فَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يَتَأَخَّرَ عَنِ السَّبَبِ فَلِمَ قَدَّمَ عَلَيْهِ ؟ قُلْتُ : النِّيَّةُ بِهِ التَّأخِيرُ ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ لِلعِنَايَةِ وَ لِأَنَّ خَوْفَ الغَضَبِ لَيْسَ هُوَ السَّبَبُ وَحْدَهُ ، وَلَكِنْ مَعَ كَوْنِهَا لِلْمَسَاكِينِ ، فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ : زَيْدٌ ظَنِي مُقِيمٌ " (٢٥) .

ثانياً : تقديمِ الجَارِ والمَجْرورِ على اسمِ (إِنَّ) وتأخيرُهُما :

ذَكَرَ الرَّمَخَشَرِيُّ أَنَّ التَّحْوِيلَ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ جَاءَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّوْبِيخِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنِعْمَ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴾^(٢٦) ، فَقَدْ تَقَدَّمَ حَبْرٌ أَنَّ وَهُوَ الْجَارُ وَالْمَجْرورُ (فِيكُمْ) عَلَى اسْمِهَا (رَسُولِ اللَّهِ) (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، لِإِفَادَةِ مَعْنَى " تَوْبِيخِ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا اسْتَهْجَنَ اللَّهُ مِنْهُمْ مِنْ اسْتِتْبَاعِ رَأْيِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِأَرَائِهِمْ ، فَوَجِبَ تَقْدِيمُهُ لِانْصَابِ الْعَرَضِ إِلَيْهِ " (٢٧) .

وَقَدْ يَكُونُ التَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى التَّأْكِيدِ وَالتَّشْدِيدِ مَعَ الْاِخْتِصَاصِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾^(٢٨) . يَذْكَرُ الرَّمَخَشَرِيُّ أَنَّ تَقْدِيمَ الْجَارِ وَالْمَجْرورِ هُنَا أَفَادَ مَعْنَى التَّأْكِيدِ وَالتَّشْدِيدِ مَعَ الْاِخْتِصَاصِ ، إِذْ يَقُولُ : " فَإِنْ قُلْتَ : مَا مَعْنَى تَقْدِيمِ الظَّرْفِ ؟ قُلْتَ : التَّشْدِيدُ فِي الْوَعِيدِ ، وَأَنَّ إِيَابَهُمْ لَيْسَ إِلَّا إِلَى الْجَبَّارِ الْمُقْتَدِرِ عَلَى الْاِنتِقَامِ ، وَأَنَّ حِسَابَهُمْ لَيْسَ بِوَاجِبٍ إِلَّا عَلَيْهِ وَهُوَ الَّذِي يُحَاسِبُ عَلَى النَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ " (٢٩) .

ثالثاً : تقديمِ المفعولِ الثاني على المفعولِ الأوَّلِ وتأخيرُهُ :

١- تقديمِ عُنْصَرِ (شُرَكَاء) على عُنْصَرِ (الْجَنِّ) وتأخيرُهُ :

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾^(٣٠) ، خَالَفَ الرَّمَخَشَرِيُّ وَعَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ الْعُلَمَاءَ مِمَّنْ سَبَقُوهُمَا فِي تَحْلِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ((وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)) ، إِذْ اسْتَعْنَى جُلُوهُمْ بِبَيَانِ التَّغْيِيرِ الْمَوْضِعِيِّ وَالْوِظْفِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ لِهَذِهِ الْوَحْدَاتِ عَنْ تَحْلِيلِ النَّصِّ تَحْلِيلًا فَنِيًّا يَشْمَلُ التَّشْكِيلَ الْبِنَائِيَّ وَالدَّلَالِيَّ كَمَا فَعَلَ

الزَمْخَشَرِيُّ وَقَبْلَهُ الْجِرْجَانِيُّ^(٣١)؛ لاستنباطِ القيمةِ الجماليةِ والطَّاقَةِ البيانيةِ المؤثِّرةِ في التَّرْكِيبِ البنائيِ الخارجيِ .فَعَلَى سَبِيلِ المِثَالِ يَقُولُ الفَرَّاءُ : " إِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ (الجِنَّ) تفسيراً للشُّركاءِ . وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَ نَصْبَهُ عَلَى : جَعَلُوا الجِنَّ شُرَكَاءَ اللَّهِ تبارك وتعالى "^(٣٢) ، وَأَتْبَعَهُ عِدَّةٌ مِنَ العُلَمَاءِ ، مِنْهُمْ : أَبُو جَعْفَرِ الطَّبْرِيِّ^(٣٣) وَأَبُو جَعْفَرِ النَّحَّاسِ^(٣٤) لَهُذِهِ التَّفْسِيرَاتِ ، لَكِنْ هَذِهِ التَّفْسِيرَاتِ الشُّكْلِيَّةِ لَمْ يَرْتَضِهَا الزَّمخَشَرِيُّ لِعَجْزِهَا عَنِ تَأْدِيَةِ الدَّلَالَةِ المقصودةِ ؛ لِذَا يَجِدُ أَنَّ فِي هَذِهِ الآيَةِ الكريمةِ دلالةَ فنيةِ جميلةٍ لا تُدْرِكُ إِلَّا بِالحسِّ المُرْهِفِ وَالدُّوقِ الفَنِيِّ ، تَتَمَثَّلُ فِي إنْكَارِ اتِّخَاذِ شَرِيكِ اللَّهِ تَعَالَى عَمُومًا سِوَاءَ أَكَانَ مِنَ الجِنَّ أَمْ غَيْرِهِمْ ، فَقدَ ذَكَرَ الزَّمخَشَرِيُّ أَنَّ تَقْدِيمَ الجارِ والمجرورِ (لفظِ الجلالةِ) (لِلَّهِ) عَلَى مفعولَي (جَعَلُوا) وَهُمَا (شُرَكَاءَ الجِنَّ) ، كَمَا تَقَدَّمَ المفعولُ الثَّانِي (شُرَكَاءِ) عَلَى المفعولِ الأوَّلِ (الجِنَّ) لِلدَّلَالَةِ عَلَى "استِعْظَامِ أَنَّ يَتَّخِذَ اللَّهُ شَرِيكَ مَنْ كَانَ مَلَكًا أَوْ جِنِيًّا أَوْ إِنْسِيًّا أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ " ^(٣٥) . وَبِهَذَا يَكُونُ تَغْيِيرُ النَّمطِ التَّرْكِيبِيِّ لِلآيَةِ الكريمةِ بِمقتضىِ قاعدةِ تحويلةِ اختياريَّةِ بالشُّكْلِ الآتِي :

((وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ)) ————— وَجَعَلُوا الجِنَّ شُرَكَاءَ اللَّهِ

فَيَبَيِّنُ أَنَّ اِقْتِصَارَ البِنْيَةِ الدَّلَالِيَّةِ لِلتَّرْكِيبِ التَّحْوِيلِيِّ الجَدِيدِ (وَجَعَلُوا الجِنَّ شُرَكَاءَ اللَّهِ) مُجَرَّدُ إِخْبَارٍ تَقْريري مُنْكَرٍ .

٢- تَقْدِيمُ عُنْصُرِ (إِلَهَهُ) عَلَى عُنْصُرِ (هَوْنَهُ) وَتَأْخِيرُهُ :

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ فَأَنَّتْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴾ ^(٣٦) ، ذَكَرَ الزَّمخَشَرِيُّ أَنَّ سَبَبَ تَقْدِيمِ المفعولِ بِهِ الثَّانِي (إِلَهَهُ) عَلَى المفعولِ الأوَّلِ (هَوْنَهُ) هُوَ لِلعِنَايَةِ وَالاِهْتِمَامِ ، إِذْ يَقُولُ " فَإِنْ قُلْتَ : لِمَ أَخَّرَ (هَوَاهُ) وَالأَصْلَ قَوْلُكَ : اتَّخَذَ الهَوَى إِلَهًا ! قُلْتُ : مَا

هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية ، كما تقول علمتُ مُنطلقاً زيداَ لفضل عنايةك بالمنطق" (٣٧).

ويُستخلص مما سبق أنّ الزمخشري ربط بين دلالة التقديم والتأخير والسياق الخارجي (الحال والمقام) من خلال مُقتضى القاعدة التحويلية ، كما أنه أشار إلى ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني من أن له أغراضاً كثيرة ، ولم يكتفِ بما أشار إليه أغلب اللغويين من ارتباط التقديم والتأخير بالعناية والاهتمام ٠٠ الخ .

الخاتمة

لقد توصلَ البَحْثُ إلى مجموعةٍ مِنَ النَّتَائِجِ نُوجِزُهَا بِمَا يَأْتِي :-

١- أنشأ العالمُ اللُّغويُّ الأمريكيُّ جومسكي المنهجَ التَّحويلي التَّوليدي ، وهذا المنهج بدأ بكتابٍ صَغِيرٍ أَصَدَرَهُ جومسكي في عام ١٩٥٧م بعنوان (البنى التَّركيبية أو البنى النَّحوية) ومنذُ صُدورِ هذا الكتابِ تَوَالَتِ الكُتُبُ والمؤَلِّفاتُ والتَّحليلاتُ التي أُسَهَمَتْ في تَطْوِيرِ النَّظَرِيَّةِ التَّحويليةِ حتى أصبحتْ هذه المدرسة من أكثرِ المدارسِ اللُّغويةِ أهميةً وشهرةً في العالم .

٢- تُعَدُّ الظَّواهرُ التَّحويلية من الموضوعاتِ النَّحوية والدَّلالية التي نالَتْ عنايةً واهتماماً كبيرين قديماً وحديثاً ، وذلك لبيانِ كَشْفِ المعاني الغامضةِ أو المُبْهَمَةِ ، لذا فقد اهتمَّ القُدَّماءُ من العربِ بِهذه الظاهرة ؛ لكونِها وسيلةً مُؤَثِّرةً لفَهمِ المعنى .

٣- تناولَ القُدَّماءُ هذا المنهجَ ، وعَرَفُوا قيمتهُ في تحديدِ معنى الوحدةِ الكلامية من خلالِ استدلالهم وإشاراتهم بالمقامِ والحالِ لِبَيَانِ الغرضِ سَوَقِ الكلامِ وإيضاحِ القَصْدِ منه ، وربطوا بينَ السِّياقِ والمقامِ .

٤- لقد سَبَقَ اللُّغَوِيُّونَ وَالبَلَاغِيُّونَ وَالمُفَسِّرُونَ العَرَبُ وَالمُسْلِمُونَ أَصْحَابَ هَذَا المَنْهَجِ مِمَّا أَشَارُوا إِلَيْهِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا أَصْحَابَ مَنْهَجٍ شَامِلٍ .

٥- تَتَنَاوَلُ الرَّمْخَشَرِيُّ هَذِهِ الظُّوَاهِرَ بِأَسْلُوبٍ دَقِيقٍ ذِي دَلَالَةٍ جَمَالِيَّةٍ وَفَنِيَّةٍ عَمِيقَةٍ وَطَاقَةٍ تَعْبِيرِيَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنْ خِلَالِهِ حَدِيثَهُ وَتَحْلِيلَهُ وَتَفْسِيرَهُ هَذِهِ الظُّوَاهِرَ ، كَمَا أَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يُمَيِّزَ بَيْنَ البِنْيَةِ السُّطْحِيَّةِ أَوْ الخَارِجِيَّةِ وَالبِنْيَةِ العَمِيقَةِ أَوْ الدَّاخِلِيَّةِ فِي الجُمْلَةِ أَوْ السِّيَاقِ ، وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جُومَسْكِ فِي مَنْهَجِهِ التَّوْلِيدِيِّ التَّحْوِيلِيِّ .

٦- لَمْ يَكْتَفِ الرَّمْخَشَرِيُّ بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ اللُّغَوِيُّونَ مِنْ ارْتِبَاطِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ بِالعُنْيَةِ وَالاِهْتِمَامِ وَإِنَّمَا طَبَّقَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ عَبْدُ القَاهِرِ الجِرْجَانِيُّ مِنْ أَنَّ لَهُ أَغْرَاضًا كَثِيرَةً ، كَالدَّلَالَةِ عَلَى الإِخْتِصَاصِ وَمَعْنَى التَّأَكِيدِ وَالتَّشْدِيدِ وَتَعْظِيمِ الأَمْرِ وَاسْتِكْبَارِهِ وَالتَّوْبِيخِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَالي جَانِبِ ذَلِكَ فَقَدْ رَبَطَ بَيْنَ دَلَالَةِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ وَالسِّيَاقِ الخَارِجِيِّ (الحَالِ أَوْ المَقَامِ) .
أَمَّا بِشَأْنِ أَسْلُوبِ التَّحْوِيلِ بِالحَذْفِ وَالدِّكْرِ فَإِنَّ أَغْلَبَ مَا ذَكَرَهُ كَانَ يَتَّعَلَقُ بِالإِشَارَةِ إِلَى مَوَاطِنِ الحَذْفِ مِنْ دُونِ رِبْطِهِ بِالجَانِبِ الدَّلَالِيِّ وَالسِّيَاقِيِّ ، فَقَدْ كَانَتْ إِشَارَاتُهُ إِلَى دَلَالَةِ الحَذْفِ وَعِلَاقَتِهِ بِالسِّيَاقِ قَلِيلَةً.

الهوامش

- ^١ - ينظر: علم اللغة المعاصر: ٥٦ ، و من علم المعاني إلى علم الدلالة : ١١٠، ومدخل إلى اللسانيات : ٨٢-٨٤.
- ^٢ - ينظر: وصف اللغة العربية دلاليًا : ٢٨٠-٢٨١ .
- ^٣ - ينظر: الكتاب : ١ / ٣٤ ، ودلائل الإعجاز : ٧ .
- ^٤ - ينظر: مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة : ١٨٩ .
- ^٥ - ينظر: النحو العربي والدرس الحديث : ١١٢ .
- ^٦ - ينظر: مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة : ١٨٩ ، واللسانية التوليدية والتحويلية: ٢١-٥٣.

- ٧ - ينظر: علم الدلالة - دراسة وتطبيق ، د . نور الهدى لوشن : ٥١ ، وأسس لسانيات النص : ١٠٠ وما بعدها ، والتحليل اللغوي للنص : ٢٢ وما بعدها ، والتحويل في النحو العربي : ٤٦ - ٥٤ .
- ٨ - ينظر: مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين : ٢٣٤ - ٢٣٥ .
- ٩ - ينظر : الكتاب : ٦٨/١ ، ٩٩ ، ومجاز القرآن : ١٧ ، ١٩ ، ومعاني القرآن - الأخفش الأوسط : ٥٢٠/٢ ، والمقتضب : ٤٢٧/٤ - ٤٢٨ ، ٤٣٥ - ٤٣٦ ، والكامل : ٢٨/١ ، ومعاني القرآن - الزجاج : ٤١٠/١ - ٤٢٠ ، والجمل : ٢٨ - ٢٩ ، والخصائص : ١٥٨/٢ - ١٦٩ ، وفقه اللغة و سر العربية : ٣٦٧ - ٣٦٨ .
- ١٠ - الكتاب : ٦٨/١ .
- ١١ - التصور اللغوي عند الأصوليين : ١١٧ ، وينظر : التراكيب اللغوية : ١١٦ - ١١٧ ، والتوسع في كتاب سيبويه : ١٠٥ - ١٠٧ .
- ١٢ - مجاز القرآن : ١٧ ، ١٩ .
- ١٣ - معاني القرآن : ٥٢٠/٢ .
- ١٤ - المقتضب : ٤٢٧/٤ - ٤٢٨ ، ٤٣٥ - ٤٣٦ .
- ١٥ - معاني القرآن : ٤١٠/١ - ٤٢٠ .
- ١٦ - ينظر : الأصول : ٣٥٤ ، والتقديم والتأخير ومباحث التراكيب : ١٣٧ ، واللفظ والمعنى : ٣٣٥ ، والتراكيب النحوية : ٩٣ وما بعدها .
- ١٧ - دلائل الإعجاز : ٨٥ .
- ١٨ - ينظر : الكشاف : ٣٤٠ ، ٦٢٧ ، ١٠٣٥ ، ١٠٩٢ ، ١١٩٩ ، والزمخشري ناقداً : ١٠٥ - ١٠٩ ، والتقديم والتأخير في القرآن الكريم ، حميد أحمد عيسى العامري : ١١٢ - ١١٤ .
- ١٩ - الفاتحة - أ : ٥ .
- ٢٠ - ينظر : الكشاف : ٢٨ ، ومن بلاغة القرآن : ٨٨ ، ودراسات نقدية في اللغة والنحو : ٩٢ .
- ٢١ - التحويل في النحو العربي : ٧٤ ، وينظر : مفهوم التحويل وأنواعه في العربية : ١٨٧ .
- ٢٢ - البقرة - الآية : ٣ .
- ٢٣ - الكشاف : ٣٩ .
- ٢٤ - الكهف - الآية : ٧٩ .
- ٢٥ - الكشاف : ٦٢٧ .
- ٢٦ - الحجرات - الآية : ٧ .
- ٢٧ - الكشاف : ١٠٣٥ .
- ٢٨ - العاشية - الآية : ٢٥ - ٢٦ .
- ٢٩ - الكشاف : ١١٩٩ .
- ٣٠ - الأنعام - الآية : ١٠٠ .
- ٣١ - ينظر : دلائل الإعجاز : ١٩٢ ، والتقديم والتأخير في القرآن الكريم ، عز الدين محمد أمين : ١١٤ - ١١٢ .
- ٣٢ - معاني القرآن : ٣٤٨/١ ، وينظر : التقديم والتأخير في القرآن الكريم : عز الدين محمد أمين : ١١٤ - ١١٢ .
- ٣٣ - ينظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٧/٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ .
- ٣٤ - ينظر : إعراب القرآن : ٢٧٨ .
- ٣٥ - الكشاف : ٣٤٠ .
- ٣٦ - الفرقان - الآية : ٤٣ .



- 37 - الكشف : ٧٤٧ .
- 38 - ينظر : النحو والدلالة : ١١٥ ، والنحو العربي والدرس الحديث : ١٥٠ - ١٥٢ ، ونظرية النحو العربي : ٨٨ - ٩٧ ، وتحليل النص النحوي : ١١٩ ، والتوسع في كتاب سيبويه : ١٢ .
- 39 - الكتاب : ٢٨٤/٣ .
- 40 - دلائل الإعجاز : ١١٢ .
- 41 - البقرة ، الآية : ٢٦١ .
- 42 - الكشف : ١٤٩ .
- 43 - المصدر نفسه .
- 44 - الأعراف ، الآية : ١٦٠ .
- 45 - الكشف : ٣٩٢ .
- 46 - الزمر ، الآية : ٣٩ .
- 47 - الكشف : ١٣٢ - ١٣٣ / ٤ .